الكتب

كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك

للمقريزي

نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر

للأستاذ محمد بك كرد علي

المقريزي مؤرخ القرن التاسع غير مدافع (٨٤٥ هـ)، استفاضت شهرته بتآليفه في حياته وبعد مماته، وقد طبع له حتى الآن « كتاب التنازع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم » و« الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام » و« البيان والاعراب عما في أرض مصر من الاعراب » و « الأوزان والمكاييل الشرعية » و « الطرفة الغريبة في أخبار حضرموت العجيبة ». وأهم كتبه الذي حفظ به تاريخ عمران مصر كتابه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » الذي يدعى تسهيلاً « الخطط » طبع غير مرة وعني به علماء الشرقيات عناية خاصة ومنهم من اقتطع منه فصولاً نقلها إلى إحدى اللغات الأفرنجية، ومنهم من درسه في الجامعات وعلق عليه

ومن كتب المقريزي التي بقيت محفوظة في بعض دور الكتب العامة، واكتفى علماء الشرقيات بنقل ما يتعلق بغرضهم منها « كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك » وقد وفق الأستاذ محمد مصطفى زيادة المدرس بقسم التاريخ في كلية الآداب بالجامعة المصرية باخراج هذا السفر الجليل على طريقة علماء الشرقيات في إحياء تراثنا الأدبي، معارضاً له على عدة نسخ مخطوطة وأهمها نسخة بخط المؤلف. وتجد في كل صفحة أثر العناية البالغة في هذا الجزء الأول — القسم الأول ٢٦١ صفحة من القطع الأخير

« كتب المقريزي — كما جاء في تصدير الناشر — كتابه على نظام الحوليات الشائع في مؤلفات المؤرخين الشرقيين في القرون الوسطى فسرد تاريخ كل سنة على حدته، ولم يحاول أن يصل بين سنة وأخرى أبداً، ولم يستوقف القارىء في وسط السنين إلا عند حدوث عهد جديد » وقال المقريزي إنه لما أكمل كتاب « عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط » و « كتاب اتعاظ الحنفاء بأخبار الخلفاء » وهما يشتملان على ذكر من ملك مصر من الأمراء والخلفاء منذ فتحت وإلى أن زالت الدولة الفاطمية. أحب أن يصل ذلك بذكر من ملك مصر بعدهم من الملوك الأكراد الأيوبية والسلاطين المماليك التركية والجركسية غير معتن فيه بالتراجم والوفيات لأنه أفرد لها تأليفاً آخر

وفي هذا الكتاب كما في أكثر ما خطته يد المقريزي يسقط الباحث على شذرات في التاريخ وآراء سديدة في نقد الحوادث ما عرف عنه مثله في سائر كتبه المنقحة، فقد قال في دولة بني العباس وهو ما سبق له التصريح بمثله في كتابه النزاع والتخاصم: « وفيها افترقت كلمة الاسلام وسقط اسم العرب من الديوان، وأدخل الأتراك في الديوان، واستولت الديلم ثم الأتراك، وصار لهم دول عظيمة جداً، وانقسمت ممالك الأرض عدة أقسام، وصار بكل قطر قائم يأخذ الناس بالعسف ويحكمهم بالقهر » وقال في المنصور إنه أول من أوقع الفرقة بين ولد العباس وولد علي بن أبي طالب وكان قبل ذلك أمرهم واحداً، وهو أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم، وأول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات، وأول خليفة استعمل مواليه وغلمانه في أعمال وقدمهم على العرب، فاقتدى به من بعده من الخلفاء، حتى سقطت قيادات العرب وزالت رياستها وذهبت مراتبها، وكان قد نظر في العلم فكثرت في أيامه روايات الناس واتسعت علومهم

ومما دونه من حوادث سنة ٥٩٤ أن معز الدين اسماعيل ابن سيف الاسلام طغتكين ملك اليمن ادعى الالوهية نصف نهار وكتب كتاباً وأرخه من مقر الالوهية ثم رجع عن ذلك، وادعى الخلافة، وزعم أنه من بني أمية ودعا لنفسه في سائر مملكته بالخلافة، وقطع الدعاء من الخطبة لبني العباس ولبس ثياباً خضراً وعمائم خضراً مذهبة، وأكره من كان في مملكته من أهل

الذمة على الاسلام ... وفى حوادث سنة ٦٠٧ أن الملك الأوحد ابن العادل ظفر بملك الكرج ففدى هذا نفسه منه بمائة ألف دينار وخمسة آلاف أسير من المسلمين ، وأنه يلتزم الصلح ثلاثين سنة وأن يزوجه ابنته بشرط ألا تفارق دينها . وفى حوادث ٦٠٩ أنه كان فى جهاز ضيفة خاتون ابنة العادل مائة مغنية يلعبن بأنواع الملاهى ، ومائة جارية يعملن أنواع الصنائع البديعة . وفى حوادث ٦٢٦ أنه وقعت الحوطة على دار القاضى الأشرف أحمد بن القاضى الفاضل ، وحملت خزائن الكتب جميعها إلى قلعة الجبل بمصر ، وجملة الكتب ثمانية وستون ألف مجلدة ، وحمل من داره خشب خزائن الكتب مفصلة وحملها تسعة وأربعون جملاً ، وان عدة الكتب ١١٨٠٨ كتب ، ومن جملة الكتب المأخوذة كتاب الأيك والغصون لأبى العلاء المعرى فى ستين مجلداً

وقال فى الموفق العباسى إنه أول خليفة قُهر وحجر عليه ووكل به . وروى قول ابن مقلة : « انى أزلت دولة بنى العباس وأسلمتها إلى الديلم لأنى كاتبت الديلم وقت انقاذى إلى أصبهان وأطمعتهم فى سرير الملك ببغداد فان اجتنيت ثمرة ذلك فى حياتى وإلا فهى تجتنى بعد موتى . » وذكر أنه قلت الجباية فى عهد المعز من الأيوبيين بمصر فاتفقوا فى دار السلطان على ما يصرف إلى عياله وما يقتات به أولاده ، وأفضى الأمر إلى أن يؤخذ من الأسواق ما لا يوزن له ثمن وما يغصب من أربابه ، وأفضى هذا إلى غلاء أسعار المأكولات ، فان المتعيشين من أرباب الدكاكين يزيدون فى الأسعار العامة بقدر ما يؤخذ منهم للسلطان ، فاقتضى ذلك النظر فى المكاسب الخبيثة وضمن باب المزر باثنى عشر ألف دينار ، وفسح فى اظهاره وبيعه فى القاعات والحوانيت ، ولم يقدر أحد على انكار ذلك ، وصار ما يؤخذ من هذا السحت ينفق فى طعام السلطان وما يحتاج إليه ، وصار مال الثغور والجوالى إلى من لا يبالى من أين أخذ المال . . . العزيز هو الذى منع من استخدام أهل الذمة فى شىء من الخدم السلطانية ، والزموا لبس الغيار فى عهده ، وأعاد المكوس التى كان أبطلها أبوه صلاح الدين وزاد فى شنافتها ، وتجاهر بالمعاصى والمنكرات ، وأبلح أرباب الأمر والنهى الخمر والحشيش ، وأقيمت عليها الضرائب الثقيلة ، واضطربت أحوال الديار المصرية من قلة العدل وكثرة المعاصى والفسوق ، وكثر اجتماع النساء والرجال على الخليج لما فتح ، وعلى ساحل مصر ، وتلوث النيل بمعاص قبيحة « وعدمت الأرزاق من جانب الديوان ، وتعذرت وجوه المال حتى عم المرتزقة الحرمان ، واستبيح ما كان محظوراً من فتح أبواب التأويلات ، وأخذ ما بأيدى الناس بالمصادرات » ومع هذا قال المقريزى فى هذا الملك لما مات : إنه كان ملكا كريماً عادلاً رحيما ، حسن الأخلاق ، شجاعاً ، سريع الانقياد ، مفرط السخاء ، سمع الحديث من السلفى وابن عوف وابن برى ، وحدث ، وكانت الرعية تحبه محبة كثيرة ، وكان يعطى العشرة آلاف دينار ، ويعمل سماطاً عظيما يجمع الناس لأكله ، فاذا جلسوا للأكل كره منهم أكله ، ولا يطيب له ذلك ، وهذا من غرائب الأخلاق اه

ووصف فى حوادث سنة سبع وتسعين وخمسمائة الغلاء الذى حدث فى مصر حتى أكل الناس الميتات وأكل بعضهم بعضاً وتبع ذلك فناء عظيم ، وتمادى الحال ثلاث سنين متوالية لا يمدُّ النيل فيها إلا مداً يسيراً ، وشنع الموت فى الأغنياء والفقراء فبلغ من كفنه العادل من الأموات فى مدة يسيرة نحواً من مائتى ألف إنسان وعشرين ألف إنسان ، وأكلت الكلاب بأسرها ، وأكل من الأطفال خلق كثير ، وصار الناس يحتال بعضهم على بعض ويؤخذ من قُدر عليه فيؤكل ، وإذا غلب القوى ضعيفاً ذبحه وأكله ، وفقد كثير من الأطباء لكثرة من كان يستدعيهم إلى المرضى فاذا صار الطبيب إلى دار المريض ذُبح وأكل . وهذا الوباء والغلاء يشبهان ما وقع من مثلهما فى أواخر عهد الفاطميين فى مصر والشام

ويطول بنا المقال إذا أردنا الاستكثار من الاقتباس من كتاب الملوك ، وقد استفدنا منه أنهم كانوا يطلقون على النبيلات من ربات الحجال « الستر العالى الصاحبة فاطمة » ، « الستر العالى الصاحبة غازية خاتون » ، « الستر الرفيع فلانة » كما تقول اليوم « صاحبة العصمة » ، وكنت قرأت على حائط فنساء مدرسة الفردوس بحلب : « هذا ما أمرت بانشائه ذات الستر الرفيع والجناب المنيع الملكة الرحيمة عصمة الدنيا والدين ، ضيفة خاتون ابنة السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب ... »

محمد كرد على

التنويم المغنطيسى ١٠
٠٠٠ صحيفة بالصور - كتاب علمى عملى
قراءة الأفكار وعلوم نفسية ٥
سلطان العقل الباطن ٥
موجز التنويم بالصور ١
للأستاذ وليم سرجيوس المحامى بمصر
شارع المنزة البولاقية رقم ١٥٦ بالبتية